

خطاب الأنسنة في الفكر الغربي وأبعاده الإلحادية

Human discourse in Western thought and its atheistic

1 محمد بن ايوب

1 جامعة الجزائر (الجزائر)، M.Benayoub@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2025-01-06 تاريخ القبول: 2025-05-01 تاريخ النشر: 2025-05-20

ملخص:

تحاول الورقة أن تقدم نظرة معرفية حول خطاب الأنسنة في الفكر الغربي وأبعاده الإلحادية، والذي كان له الأثر الكبير في التحويلات الفكرية والإيمانية المعاصرة، حيث تنطلق من تحولات مفهوم الإنسان في الفكر الغربي والعوامل التي ساعدت على ذلك، ثم تعرف بشكل عام لحركة الأنسنة وخصائصها وصولاً إلى بيان الأبعاد الإلحادية لنزعة الأنسنة، بدءاً بتأثيرها على البعد الديني ثم البعد الأخلاقي وأخيراً البعد الاجتماعي. لنختتم برؤية الفكر الإسلامي للنزعة الإنسانية ومدى تعارضها مع الرؤية الإسلامية، والبديل الذي يجب أن تسلكه للخروج بنظرة توافقية تسهم في تحقيق كرامة الإنسان، والحفاظ على رؤيته الإيمانية.

الكلمات المفتاحية: نزعة الأنسنة، الإلحاد، الفكر الغربي، الفكر الإسلامي

Abstract:

The paper tries to provide a cognitive look at humanoid discourse in Western thought and its atheistic dimensions which has had a significant impact on contemporary intellectual and faith transformations, It is based on the transformations of the concept of man in Western thought and the factors that helped and then generally known for the movement and castration of humanity down to the statement of the atheistic dimensions of Miss's tendency, From its impact on the religious dimension to the moral dimension and finally the social dimension. Let us conclude with the vision of Islamic thought of humanism and its incompatibility with the Islamic vision, and the alternative it must take to come up with a consensual view

that contributes to the realization of human dignity and the preservation of its faith vision.

Keywords: Feminization, atheism, Western thought, Islamic thought

(1) المؤلف المرسل: محمد بن ايوب ، M.Benayoub@univ-alger.dz

1. مقدمة:

تحاول الورقة أن تقدم نظرة معرفية حول خطاب الأنسنة في الفكر الغربي وأبعاده الإلحادية، والذي كان له الأثر الكبير في التحولات الفكرية والإيمانية المعاصرة، حيث تنطلق من تحولات مفهوم الإنسان في الفكر الغربي والعوامل التي ساعدت على ذلك، ثم تعرف بشكل عام لحركة الأنسنة وخصائنها وصولاً إلى بيان الأبعاد الإلحادية لنزعة الأنسنة، بدءاً بتأثيرها على البعد الديني ثم البعد الأخلاقي وأخيراً البعد الاجتماعي. لنختتم برؤية الفكر الإسلامي للنزعة الإنسانية ومدى تعارضها مع الرؤية الإسلامية، والبديل الذي يجب أن تسلكه للخروج بنظرة توافقية تسهم في تحقيق كرامة الإنسان، والحفاظ على رؤيته الإيمانية.

2. لمحة تاريخية عن تحولات مفهوم الإنسان

إن المتأمل في المجتمعات البدائية القديمة أو حتى في المجتمعات الإقطاعية لا يلاحظ الإنسان كفرد يمتلك الخصوصية والتفرد والأصالة، ذلك أن هذه المجتمعات القديمة تسيطر عليها فكرة الجماعة والوحدة والتماسك وتغيب عنها مفاهيم التفرد والتميز والاستقلال، فالفرد يخضع لسلطة الجماعة خضوعاً تاماً ولا يستطيع أن ينفك عنها أو أن ينفك عن عاداتها وقيمها وأعرافها، فحتى في أكثر المجتمعات تحضراً وتألقاً مثل المجتمع اليوناني لم يحظى الإنسان كفرد بأية مكانة خاصة كما لم يحظى بالاهتمام الكافي من قبل الفلاسفة، ذلك أن الفلسفة اليونانية قد صبغت جل اهتمامها على تفسير الظواهر الطبيعية وتحليلها، واتجهت لدراسة الماورائيات والبحث عن الكليات والمطلق، مع تجاهل كبير للإنسان والفرد، لكن السفسوطائيون كانوا أول من أخرج لنا فلسفة ذاتية تؤكد أهمية الذات وتوجه النظر للإنسان وتبجله حتى تطرفت في الإعلاء من شأنه فاعتبره بروتاغوراس مقياس كل شيء وهكذا توجت عهداً جديداً يوجه النظر

إلى الإنسان إلى كيانه الفردي وإلى ذاته بعد أن كان مغمورا في نظام جماعي. (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 26)

لم تتطور فكرة الإنسان في العصر الروماني بل تراجعت بعد أن سيطرة الدكتاتورية على الحكم وتم قمع الحريات وتجميع السلطات في يد الحاكم، حتى أنت المسيحية لتؤكد استقلالية الحياة الروحية لكل فرد، ولتعلن الطابع الفردي للخلاص، مما أدى إلى الاعتراف بالقيمة المطلقة لكل كائن بشري، باعتباره صورة الله الذي يجسد فيه غايته، والذي لا يمكن أن يعامل كمجرد آلة للجماعة السياسية (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 32)

ومع انحراف الكنيسة عن مسارها التأسيسي وسيطرة رجال الدين عليها، هيمنة الكنيسة الكاثوليكية على الحياة السياسية وتصرفات الأفراد. وهكذا تلاشى مبدأ الفردية في العصور الوسطى، لأن كل المعتقدات والنظريات وكل المبادئ الخلقية كانت من مصدر واحد هو الكنيسة الكاثوليكية (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 32). ومع تعاظم سيطرة الكنيسة ظهرت أصوات وقوى جديدة تنادي بخلاص الإنسان والانفكاك عن سيطرة الكنيسة والعودة على تعاليم المسيحية الأصيلة التي تدعو إلى الحرية والإعلاء من قيمة الفرد ومسؤوليته عن نفسه أمام الله ورفض وصاية الكنيسة على تطهر الأفراد ونجاتهم فعلاقة الفرد مع الله علاقة شخصية لا تحتاج إلى وساطة. (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 33) ومن هنا كان اعتناق الفرد كسمة أساسية لعصر النهضة وكرد فعل لفكر القرون الوسطى، بعد أن تحرر الإنسان من الانضباط الكاثوليكي الطويل، وأصبح يتطلع إلى التحرر في كل الميادين متسلحا بشغف الاكتشاف وروح البحث وتمجيد الغرور الإنساني وتمجيد الجسد والفن بأشكاله الأكثر وثنية. (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 36)

وكان لظهور ديكارت أثر عظيم في غرس دعائم الفردية الذاتية فمقولته " أنا أفكر إذا أنا موجود" تشكل حجر الزاوية في بنائه الفلسفي كله. فهي في جوهرها انعكاس للفردانية التي كان يدين بها، وأساس المعرفة جريا على النسق يختلف من فرد لآخر، لأن نقطة البدء بالنسبة لكل هي وجوده هو، وليس وجود غيره من الأفراد. أو وجود المجتمع (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 38) وعلى هدى ديكارت تنمو

الفردانية في عصر التنوير إذ غدت الفردية من أهم القيم الأساسية في عصر التنوير، وقد ظهرت الفردية بشكل أكثر وضوحاً في الأخلاق الكانتية، إذ يرى كانط أن كل الأحكام الخلقية تكون مرفوضة إذا لم تتلاءم مع الإرادات الخاصة، فالذات الفردية هي صانعة القانون العام (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 39)

لكن هذه الفلسفة الإنسانية الهيومانية همّشت الإله ووضعت الإنسان في مركز الكون، وجعلته المعيار الأوحّد ومقياس كلّ شيء، «وفي نفس المرحلة ظهر اسبينوزا الذي قدّم رؤية معرفيّة واضحة عن الفلسفة الماديّة، فقد حوّل العالم إلى واحديّة رياضيّة مصمّنة، الإله فيها هو الطّبيعة، والإنسان في إطار هذه المنظومة لا يختلف في أساسياته عن أيّ شيء في الكون، فمرجعيتّه النهائيّة هي الطبيعة/المادة، وقوانينه هي قوانين الطبيعة والمادّة». (عبد الوهاب المسيري، صفحة 48)

إن جوهر التحول الحاصل في عصر الحداثة هو التمرّكز حول الإنسان، والتفائل بقدراته على الإبداع والعطاء، والتوصل إلى أقصى حدود كماله، وإحلاله محل الإله والقطع مع لاهوت القرون الوسطى والانقلاب على الرؤية اللاهوتية للعالم والإنسان، أي أنّ نظرية أصالة الإنسان الهيومانيّزّم كما يقول شريعتي: «فلسفة ظهرت منذ عصر النهضة وما بعدها، مقابل الأديان الإلهية، الأديان التي تستند إلى الغيب وما وراء الطبيعة وقد حدّدت هدفها بإعطاء الأصالة للإنسان». (مصطفى كيجل، 2019، صفحة 105)

وفي ظلّ التحولات الاقتصادية والسياسية الكبرى التي وقعت بداية 19 وإلى غاية منتصف القرن 20 وما رافقه من اختيار مذاهب فلسفية وصعود مذاهب وتيارات فكرية متعددة – والتي كان معظمها تعبير عن أزمة الإنسان في المجتمع الرأسمالي – شعر الإنسان بالضياع وعانى من أنواع الاغتراب بعد أن غدا آلة ضمن ملايين الآلات البشرية في المعامل والمصانع يستغلها الرأسماليون، وأداة قتل يستعملها الاستعمار في حروبه التوسعية سواء داخل أو خارج حدود أوروبا،: «لقد فقد إنسان القرن العشرين عالماً ذا معنى وذاتاً تعيش في المعاني انطلاقاً من محور روحي، وجذب عالم الأشياء الذي أبدعه الإنسان إلى ذاته، ذلك

الإنسان الذي أبدع هذا العالم والذي فقد الآن ذاتيته فيه، لقد ضحى الإنسان بذاته على مذبح منتجات» (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 9). لقد لاحظ الفلاسفة والمفكرون هذه التغيرات الكبيرة والسريعة للقيم والمعتقدات السياسية التي كان لها الأثر الكبير على تدهور مكانة الإنسان وشهدوا على مرحلة جديدة من أفول المذاهب العقلانية التي كانت سائدة إلى منتصف القرن 19 ليسهموا في ولادة فلسفة جديدة تفك الروح الإنسانية من قيودها ويعيدوا إرادة الحياة بعد أن أدخلت ضمن علاقات موضوعية وتاريخية وحتمية (نورة عابد ، الصفحات 249-250)

لكن هذه الأزمات والهزات الكبرى أيقضت الإنسان من سباته وجعلته يتذكر نفسه ويكذب ادعاءات العلوم الإنسانية التي أرادت أن تقبض به إلى مستوى الموضوع وجعلت الإنسان يدرك لأول مرة أنه ليس مجرد شيء تتكفل بتفسيره قوانين المادة (زكرياء إبراهيم، 1968، صفحة 17) فظهرت: «فلسفة الحياة لدى نيتشه والفلسفة البراجماتية لدى وليام جيمس ومع الفلسفة الوجودية يبدأ الاتجاه نحو الإنسان، ومع كيركجارد ونيتشه تبدأ الفلسفة الذاتية الشريفة رافضة للمطلق والكلية مؤكدة الفردانية والتعدد. ومنذ ظهور الفردانية والذاتية في الفلسفة الوجودية وفلسفة الحياة والفلسفة البراجماتية يبدأ عهد جديد، وثورة جديدة من التفكير، ويبدأ الاتجاه نحو الذات بعد أن استغرقنا الموضوع والموضوعية بكل تياراتها». (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 8)

لقد كان نيتشه من أكثر المبشرين بقدوم الإنسان الجديد، الذي يبدأ عهدا جديدا للحياة الإنسانية المبنية على التفوق وإرادة الحياة بقوله: "إنني آت إليكم بنبا الإنسان المتفوق، فما الإنسان العادي إلا كائن يجب أن يتجاوز، فما أعدده لتجاوزه" (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 121) يدعونا نيتشه إلى إعداد أنفسنا وتسخير كل شيء لظهور الإنسان الأعلى، وهذا الإنسان ليس كائنا خرافيا أو اسطوريا يهبط علينا من عالم آخر، بل هو إنسان يتجه للارتقاء على هذه الأرض: «وفي هذا الاتجاه فليسمو فكرنا وليتجه نشاطنا لإقامة العالم على أساس جديد، حتى نستطيع أن نصل في النهاية إلى خلق الإنسان الأعلى استغفر الله فليست هناك نهاية وليس للإنسان الأعلى قوام ولا جواد، وإنما هو تطور وصيرورة دائمة، صورة تتزايد قواها وتسمو في تعبيرها، وليس لهذا التزايد نهاية ولا لهذا السمو حد" وهكذا نجد أن نيتشه يرى في

الإنسان الأعلى صورة لتطور الجنس البشري، وهدف إنساني تسعى إليه الحضارة الإنسانية». (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 122)

لقد كان إعلان نيته للإنسان بالأعلى بمثابة نهاية الإنسان الذي يرتبط بالإله أو الغاية والمثل أو كما يسميه المسيحي بالإنسان الرباني يحمل نفخة للروح الإلهية ويستمد منه القيم والأخلاق، لقد تأكل الإنسان ونزع عن المركزية التي وضعته فيها الحداثة الغربية في بداية النهضة الحديثة، وليس هذا فحسب بل أدى إلى التنبؤ بغيابه ونهايته كما عبّر عن ذلك ميشال فوكو بقوله: «لا يسع المرء إلا أن يقابل بضحك فلسفي كل من لا يزال يريد أن يتكلم عن الإنسان وعن ملكوته وعن تحرره... فسيضمحل الإنسان مثل نقش على رمال الشاطئ تمحوه أمواج البحر، بدأ العالم من دون الإنسان وسينتهي من دونه، وما يتأكد في أيامنا هذه ليس غياب الإله أو موته بقدر ما تتأكد نهاية الإنسان». (عبد الوهاب المسيري، صفحة 40)

لقد دخل الإنسان مرحلة جديدة من مراحل تواجده كإنسان وهي مرحلة ما بعد الإنسانية التي تقوم على موت الإنسان والتحرر من الإنسان الواعي الفاعل المبدع "فالتزعة الإنسانية ليست أكثر من خطاب فلسفي ميتافيزيقي، لإخفاء أوهام الإنسان عن نفسه، وقناعا يتستر وراء عجزه وجهله، وينشد فيه نوعا من الأمل والعزاء والطمأنينة" (مصطفى كيحل، 2019، صفحة 106)

بعد مفهوم ما بعد الإنسان في فلسفة ما بعد الحداثة مفهوم مركزي، حيث يثير الكثير من النقاشات الفلسفية والاجتماعية العميقة حول مستقبل الإنسان وطبيعة الإنسان الذي يستقبلنا في العقود القادمة فبعد أن بشرتنا الفلسفة الحديثة بموت الإله وموت الإنسان، جاءت التقنية العلمية لتبشرنا بالإنسان الفائق، أو الإنسان الكامل، معلنة بداية عصر جديد هو عصر ما بعد الإنسان الذي أبرز أماراته العمل على تجاوز كل ما ينظر إليه بوصفه نقصا في الإنسان، وإنتاج نماذج من الوجود الإنساني تنماز بالفعالية، ما يجعل هذا الوجود صناعة إنسانية عن طريق السيطرة على الحياة العضوية، تمهيدا للكمال الإنساني المعلن عن قدوم إنسانية جديدة صانعة لمصيرها (مصطفى كيحل، 2019، صفحة 116) فإن مصطلح ما بعد

الإنسانية يعني: «هي حركة فلسفية وثقافية تهتم بتعزيز الطرق المسؤولة لاستخدام التقنيات قصد تحسين القدرات البشرية وزيادة مدى ازدهار الإنسان» (عبد الغاني عليوة، صفحة 468)

مما سبق نلاحظ تحولا كبيرا في مفهوم الإنسان على مدار تاريخ الإنسان وتغيرا جذريا لمكانته وطبيعته في العقود الأخيرة والقادمة، وكان لهذا التغير الكبير جانب من التأثير الديني والسياسي لكن نعتقد أن الجانب الفكري والفلسفي كان لها الأثر الأكبر في هذه التحولات الكبرى التي وقعت للإنسان وانعكست ولا تزال بشكل كبير على مكانة الإنسان في العالم وعلى مسؤوليته وإلتزاماته الأخلاقية والإنسانية على نفسه وعلى العالم والطبيعة، فهو الآن يمر على مرحلة عاصفة من تواجده كإنسان بل ربما ككائن حي. فما الذي أوصل الإنسان إلى هذه الوضعية وكيف وصل إليها؟

3. مفهوم الأنسنة

لقد استقر مفهوم الأنسنة في الفكر الغربي الحديث على مركزية الإنسان والتأكيد على علو منزلته من خلال الانطلاق من معرفة الإنسان معرفة عميقة والعمل على صيانه وتقويمه من كل ما من شأنه أن يغيره عن ذاته أو أن يخضه لقوى خارقة تتحكم فيه أو من خلال إخلاده ما دون طبيعته البشرية (مصطفى كيحل، 2019، صفحة 103) فالإنسان أسمى الكائنات وأعلاها قدرا، وقد ظهر هذا جليا في الإنتاج الفلسفي الحديث من عصر الأنوار إلى فلسفة الحداثة في الاهتمام بالإنسان وإيلائه مكانة عالية في العالم وفي تطوّر وصناعة التاريخ والتأكيد على قدرته على المبادرة وأولوية الإرادة والتاريخ فهي فلسفة: «تنتقل من الذات والذاتية للبحث عن شروط تأسيس الموضوع والموضوعية. تؤمن بأن المبادرات البشرية تساهم في صناعة التاريخ وأن التاريخ يحقق نوعا من التقدم، وأن لذلك التقدم اتجاهها ومعنى مرتبطين بفاعليات وأهداف البشرية» (مصطفى كيحل، 2019، صفحة 104) ويعتبر هذا من أهم خصائص النزعة الإنسانية

لقد ظهرت بوادر النزعة الإنسانية الأولى في إيطاليا في بدايات عصر النهضة والتي كان الهدف منها تثقيف الناس وتحريضهم على الخروج من سيطرة الكنيسة والتخلص من ربقها والتخلص من سلطة رجال الدين. والسعي إلى تنوير الناس والتأكيد على حقوقهم وحرياتهم والذي أخذ في التشكل والتطور تدريجيا في

المجتمعات والدول حتى أصبح مسألة مركزية في الفلسفة المعاصرة تركز عليه الكثير من النظريات الفلسفية كنظرية الحق الطبيعي وحتمية الصيرورة التاريخية . (غيضان السيد علي، 2022، صفحة 30)

ولذلك يمكننا القول إنّ مصطلح "الأنسنة" قد اكتسب في أواخر القرن التاسع عشر، وبالضبط ابتداءً من سنة 1877 م معنىً تاريخياً أكثر تحديداً. بحيث صار يدلّ على ذلك التيار الفكري والفلسفي العامّ والشامل، الذي شمل ميادين الفنون والآداب والفلسفة؛ والذي انطلق في البداية من إيطاليا إلى عصر النهضة، ليعمّ بعد ذلك كثيراً من البلاد الأوروبيّة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ليشكّل أوّل نسق إيديولوجي محوره الإنسان الذي يعلن التمرد على ثقافة العصور الوسطى، ويضع الإنسان الفرد في المركز من بؤرة الاهتمام، والاهتمام بكلّ ما يثبت ذاته، ويعيد إليه الثقة في قدراته، ويغني حياته وشخصيته وفكره.

فالأنسنة Humanism اتجاه فكري وفلسفي غالى في تقديس الإنسان بوصفه كائناً فاعلاً وصانعاً للأشياء، وسيّداً لذاته، ومقرراً لأفعاله، ومغيّراً لأحوال وجوده، مؤمناً بمركزية الإنسان في الكون وأنه أعلى قيمة في الوجود. رغم أن الهدف في بدايات عصر النهضة الأوروبيّة كان تثقيف الإنسان وتنويره وتحريره من سلطة الكنيسة ورجالها. لكنه أخذ في التشكّل والتطوّر حتّى بسط سيطرته على الفكر العالمي، حتّى أصبح اليوم المسألة المركزية في الفلسفة المعاصرة. ويرتكز مفهوم الأنسنة على نظريات فلسفية خالصة كنظرية الحق الطبيعي وحتمية الصيرورة التاريخية (غيضان السيد علي، 2022، صفحة 30)

وقد ظهرت الكثير من هذه الأفكار التي بنيت على مفهوم الأنسنة في الأوساط الفكرية والفلسفية المعاصرة الغربية والعربية بل حتى في الأوساط الاجتماعية والسياسية وبنيت عليها الكثير من السياسات والبرامج من قبيل: «أنّ الكون موجود بذاته وليس مخلوقاً، وأنّ الإنسان جزء من الطبيعة، وهو نتيجة عمليات تطورية وتحسينية مستمرة فيها، والمغالاة في تقديس الإنسان، وأنه لا ثنائية بين العقل والبدن، والاستغناء عن الإله بالعلم والتقدّم المعرفي والاكتشافات الحديثة، وتحريف مفهوم الدين وتغييره، وأنسنة النصّ المقدّس، وفصل الأخلاق عن الدين والقول بنسبيتها، وعلمنة الأنظمة والمؤسسات وتنحية الدين،

واعتبار نظرية التطور لداروين Darwin هي التفسير المقبول لنشأة الإنسان، والقول بالتعددية الدينية ومساواة الأديان جميعاً في التعبير عن جزء من الحقيقة الإلهية. ولا شك في أنّ تلك الأفكار وجدت صدًى لها في الثقافة العربية والإسلامية على أيدي مفكرين بارزين. (غيضان السيد علي، 2022، صفحة 30)

«

وكان لهذه الأفكار والنظريات التي نشأت تباعاً من عصر النهضة إلى يومنا هذا تأثير كبير على المنظومة الدينية والقيمية والاجتماعية للإنسان فهي أفكار انطلقت من تأليه الإنسان وتقديسه وتنحية المرجعيات الدينية عن النظريات الفكرية والفلسفية إلى الإلحاد وعدم الاعتراف بأي مرجعية إلهية أو حتى إنسانية وسنحاول أن نبرز أهم التأثيرات الإلحادية على الأبعاد الدينية والأخلاقية والاجتماعية كنماذج من هذا التأثير.

4. الأبعاد الإلحادية في خطاب الأنسنة

1.4 الأبعاد الدينية

استطاعت النزعة الإنسانية خلال فترة وجيزة من دعوتها أن تؤلب الناس على الكنسية ورجال الدين، وتدعو للقطيعة والخلاص من تبعتها وسيطرتها، ذلك أن الناس قد عانت من حكمها وأحكامها، لكن هذا الانتصار لم يتوقف عند التحرر من سيطرتها، بل دفع بالإنسان الغربي إلى ثورة علمية اقتصادية واجتماعية وسياسية مكنته من إحداث طفرة في مسار التاريخ الأوروبي والغربي للإنسان، ورافق كل هذا تيارات فكرية وفلسفية كان ترسم طريقه وتضبط منهجه، وأدرك حينها الإنسان الغربي أن تعاليم الدين كانت تثبط عزمته وتحجب عنه عقله وإرادته: «فكانت النتيجة المباشرة لنزعة "الأنسنة" هي نزع القداسة عن الدين والأمور الدينية، ولققت التعاليم الإنسانية بتعاليم اللاهوت المسيحي، وتمت الثورة على الأخلاق المسيحية؛ فبدلاً من المحبة حلّ الفرح باستعمال الإنسان للقوى التي وهبها الله إياها، وحلّت الحرّة والمسؤولية بتوجيه العقل محلّ الخضوع لإرادة الله، وأخذ البحث الفكري الجريء يحتلّ بالتدريج مكان الإيمان، وأصبحت إرادة الإنسان الحرّة هي التي توجّهه». (إمام عبد الفتاح، صفحة 20)

لقد اشتدت فتنة الإنسان المعاصر بعقله، حتى ألهه وسلّم له كل مقاليدِه ليُبنى عليها عقلانيته اللادينية الضالة ويدعن لسلطته وحكمه، فبالرغم من أنه قادر على الكشف العلمي والاختراع، و التمييز بين الخير والشر والنفع والضرر، ولكن لم يستطع أن يحدد بدقة عناصر الحق والخير والجمال وطرق الوصول إلى كل منها مستقلا دون موجه أو معين، فهو بحاجة ماسة دائمة إلى العون الخارجي الذي يأتيه من وحي صادق يحيط بما يحيط بعلمه، ويوجهه إلى ما فيه خيره وصلاحه ورشده. (عبد المجيد النجار ، الصفحات 17-18)

لم تتوقف فتنة الإنسان بعقله وهو يرى بعينه المخترعات الحديثة والكشوف العلمية وكيف استطاع تفجير الطاقة الذرية وبناء الصواريخ وغزو الفضاء، حتى أصابه المس الذي أصاب نيتشه حين أعلن عن موت الإله ومولد الإنسان الأعلى السوبرمان. (عبد المجيد النجار ، صفحة 17)

لقد كان إعلان نيتشه عن موت الإله تعبير عن الموجة الإلحادية التي اجتاحت أوروبا الغربية نهاية القرن التاسع عشر وتعبير عن التيار الإنساني الذي ذهب إلى: «أنسنة الإله وجله إلها واقعيا أرضيا شهوديا في مقابل الإله المتعالي السماوي الغيب. أي أنها جعلت من الإنسان كائنًا مطلقًا، وبالغت في تمجيد القيم الإنسانية، ولم تعترف بأيّ كائن فوق الإنسان، فالإنسان - عندهم - هو وحده الذات الممثلة للوجود الحقيقي. وقد أعلن أنّ الإنسان هو الغاية المبتغاة من هذا العالم وهو المترجّع على عرش الموجودات جميعًا، وأنّ الإله المزعوم ما هو إلّا صورة للكمال الإنساني المتخيّل» (غيضان السيد علي، 2022، صفحة 38) ومن هنا انطلق الإنسان يبحث عن جوهره الذي سلبته هيمنة الوجود الإلهي على حياته، ليعلن ثورة على الدين وتعاليمه في كل شؤون حياته ويسير شؤونُه الخاصة والعامة من دون أي دين، فالشعور الديني يفقد الإنسان حماسه في تحقيق السعادة والرفاهية والتقدم المادي مادام أن هناك حياة آخرة قد وعد بها تغنيه عن أي مجهود ومادامت هناك رعاية ربانية تكفل له أي شيء.

لقد اعتمد الإنسان على نفسه في تحقيق سعادته وفرض إرادته والعمل على تجاوز ما يعيق تقدمه وازدهاره، من هنا كانت الفردانية «التوجه الذي يشدد على فكرة استقلالية واعتماد الفرد على نفسه في

اتخاذ قراراته وإن عارضت هذه الأهداف المؤثرات الخارجية (الدولة أو المؤسسات والمجتمع) في حين تصف موسوعة لالاند الفرد بأنه الكائن الذي يعيش بذاته ويتسم بمثل هذا التمرکز وهذا التناقص الوظيفي بحيث لا يمكن تقسيمه دون تحطيمه»

ولقد قامت الحداثة الغربية على مبدأ الفردية، وأولت الإنسان قيمة مركزية نظرية وعلمية وأرجعت كل شيء إلى الذات المفكرة فالعقل الإنساني هو سيد القرار في كل مجالات الحياة من المعرفة والأخلاق إلى السياسة والفن ولا يمكن تصور تقدم وازدهار للإنسان من دون استقلالية في الفكر أو الفعل «إذ إنّ الإنسان لا يمكنه أن يصبح فرداً حراً ومستقلاً بنفسه على نحو مطلق؛ وأن تتحقق له الذاتية المطلقة إلاّ إذا كفّ عن تصوّر عالم الألوهية، وصار إنسان نفسه لا إنسان إلهه، وفرد ذاته لا فرد ربّه» (سمير، صفحة 42)

لقد كانت النزعة الإنسانية حريصة على محاربة النزعة الدينية، فحاربت الإله وظل الإله فقضت على أي مرجعية متجاوزة تعلو على الإنسان وعقله، وتحرم إرادة ووعي الإنسان عن تحقيق ذاته. لقد كانت هذا التحول في مسار التاريخ الفكري والفلسفي للحضارة الغربية ينذر بتبعات مصيرية لا على الإنسان فحسب بل على وجوده، فبدلاً من فاعليته الإيجابية في بناء الفرد والمجتمع والأمة الإنسانية ترك الإنسان المفكر دوره كرهاً أو رغبا للتيارات النفعية البراغماتية - لا سيما الاقتصادية والسياسية-، وغدا أصحاب الشركات التقنية يتحدثون عن كيفية صناعة إنسان المستقبل الخارق (super man) الذي يستطيع التكيف مع الأمراض والكوارث، لما وضع فيه من تقنيات وشرائح تؤهله لتجاوز التكيف الطبيعي. وبهذه التصورات التقنية لمصير الإنسان والبشرية رُسم التقني مفكراً بديلاً عن المفكر الحقيقي، الذي ينطلق من توصيفه الإنسان بأنه جسد وروح وفكر وإرادة وغرائز، وليس جسداً فحسب فمات الإله ومات الإنسان معه لأنه يستمد منه إنسانيته وذاته وأصبح جسده مستباحاً للتجارب العلمية والتقنية وتنبؤات الذكاء الاصطناعي بعدما كان مكرماً معزواً تدور عليه العوالم والأكوان.

2.4 الأبعاد الأخلاقية

لقد سعت النزعة الإنسانية إلى حماية حق الفرد في الاختيار والعيش والتمتع بالحرية التي تمكنه من فرض ذاته والتحكم في اختياراته، وصرف الإنسان عن أي مرجعية دينية أو غيبية تعلو عليه أو تسبقه، فهو مرجع ومقياس كل شيء، لقد كان ديكارت السباق لنمو الفردانية في عصر التنوير حتى غدت الفردية من أهم القيم الأساسية في عصر التنوير، وقد ظهرت الفردية بشكل أكثر وضوحاً في الأخلاق الكانطية، إذ يرى كانط أن كل الأحكام الخلقية تكون مرفوضة إذا لم تتلاءم مع الإرادات الخاصة، فالذات الفردية هي صانعة القانون العام (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 39)

إن غياب المرجعية النهائية أو المتجاوزة - كما يسميها المسيحي - في الفلسفة الحديثة، كان نتيجة تعاضل الذات الإنسانية والحرية الفردية التي قوضت البناء الروحي وأزالته عن مكانه الطبيعي، مما جعل الإنسان يدخل يعيش حالة من النسبية واللايقين التي تتعدد بتعدد الشعوب والأمم، وتتغير بتغير الأفراد والظروف المحيطة بهم، يقول نيتشه " لقد تحقق لزرادتشت " أن ليس من شعب تحلو له الحياة دون أن يخضع النظم لتقديره، وإن كل شعب يرى من واجبه إذا أراد الحياة أن يأتي بتقدير يختلف عن تقدير من يجاوره من الشعوب، وهكذا ما كان يراه أحدهما خيراً يراه الآخر دناءة وعاراً" (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 84)

لقد كان من الطبيعي أن يؤكد نيتشه على نسبية الأخلاق والقيم الجمالية، كونها نتاج الفرد والفردية التي تتضمن التعدد والمتناهي والمتغير، أما إذا انطلقنا من فرض الوحدة، وهو الفرض الذي تنطلق منه النزعة الجماعية، فلا بد أن نصل إلى القول بثبات الأخلاق والقيم وإلى تأكيد الضرورة والحتمية، وإلى اللامتناهي غير المنقطع. (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 85)

كانت النتيجة الحتمية لموت الإله في - الفلسفة الغربية الحديثة - غياب المرجعية النهائية التي يستمد منها الإنسان التشريع ويستمد منها الأحكام والنظم التي تؤطر سلوكه الإنساني وتدير حياته بالمدد الرباني والروحاني التي يغذي بها روحه الفارغة، لم تكن فكرة موت الإله مجرد التنصل من التبعات والاحكام الدينية

التي تعيق تقدم الإنسان وحرية بل كانت غياب القاعدة الصلبة التي يحتكم إليها الإنسان في تحديات الحياة المتعددة.

لقد كانت الحرية أولى القيم وأهم القيم التي دافعت عنها الفلسفات المتعاقبة من عصر الأنوار إلى العصر الحديث باعتبارها أولى القيم التي تبنى عليها كل القيم الأخلاقية الأخرى لتأكيد عليها على الحرية الشخصية وعلى احترام خصوصيات الفرد وحقوقه وحمايته من أي قهر سياسي أو اجتماعي تحت أي مبرر، لكن هذه الحرية حولت الإنسان من عابد للاله يمدد بمدد التواصل الروحاني و المقصدية الأخلاقية إلى عابد لذاته و لمصالحه ومن ثمة التشريع للذات في انفصال كلي عن أشكال الأمر، إن عصر إرادة القوة حيث يخرج الفرد من ربة كل الإلتزامات، إلزام الكنيسة والمجتمع و كل سلطة خارجية، فقد انتهت المثل العليا و غاب كل إيمان و أصبح المطلب المتمتع بالوجود الجميل.

ويرى الجابري أنه من المفارقات التي يمكن تسجيلها هنا أنه بينما اتجه التفكير منذ مائة سنة عندما كان الناس يعيشون على مشارف القرن العشرين، إلى نقد الأخلاق والتركيز على نسبيتها والتأكيد على قدرة العلم على بيان أصلها وفصلها، فإننا اليوم ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، نجد أنفسنا أمام الحاجة إلى "العودة إلى الأخلاق"، أمام ضرورة تأسيس أخلاقية جديدة تفرض سلطتها على العلم وتقدمه، ليس في مجال علم الأحياء والطب وتطبيقاتها وحسب، بل وأيضا في مجال العلوم الطبيعية الأخرى وتطبيقاتها المدمرة (الأسلحة الذرية والكيميائية والبيولوجية...)، فهل سيكون القرن الواحد والعشرون متميزا بـ "عودة الأخلاق؟ وبأي معنى؟ وعلى أي أساس؟ سؤال يحملنا حاضرا العلم على طرحه، ولكننا لا نملك سبيلا إلى الإجابة عنه. (محمد عابد الجابري، 1997، صفحة 66)

4.3 الأبعاد الاجتماعية

لقد كان لتغول الفردانية في الفكر الغربي خلال العقود الأخيرة تغييرات اجتماعية مهمة على النظم والسياسات، فقد أكسبت الحداثة الإنسان مجالا واسعا من الحرية والإرادة والوعي بذاته وقدراته، والذي كان له الأثر الكبير في إعادة النظر للكثير من النظم والقواعد التي فرضها المجتمع عليه، والتي كانت تشكل له عائقا في تحقيق ذاته والسمو بأفكاره، وهذا ما لاحظته ليبوفتسكي في سياق حديثه عن الحداثة

المفرطة إذ لا حظ أن الناس أصبحوا أكثر مسؤولية على أنفسهم من ناحية و أكثر تحررا من القواعد و النظم من ناحية أخرى، كما لاحظ أن الأفراد في مواجهة النظم الاجتماعية أكثر حرية في تقبل هوياتهم الذاتية وفي التحكم بأنفسهم أو إطلاق الأمور على عناخها فالحرية التي اكتسبها الإنسان الغربي جعلته يثور على الجماعة والنظم الاجتماعية ويحقق ذاته بغض النظر عن أي حدود قد ترسمها المرجعيات الدينية أو الاجتماعية.

لقد فسحت التحولات الفكرية والدينية للنزعة الإنسانية الطريق لتغيرات اجتماعية وسياسية أكثر حدة، فبعد أن أبعدت الإنسان عن أي مرجعية دينية أو حتمية فكرية، تركته وحيدا للثورة التقنية التي طورها العقل الإنساني من دون أي قيود أخلاقية أو مرجعية دينية حتى أصبح من الصعب التحكم فيها والتنبؤ بتبعاتها: «إن طموح التقنية بلوغ وضع بشري يكون فيه الإنسان صناعة إنسانية محضة، وتكون فيه الحياة سعي إلى تحقيق السعادة المنظورة في المدى القريب، قد تنجرّ عليه عواقب وخيمة على الإنسانية، وعدمية وفوضى تفقدان الطبيعة معاييرها، وتحكمان بنهاية الإنسان واقترب أجله وقدم ما بعد الإنسان أو الإنسان الفائق، وهو الإنسان المتخيل الذي تعمل تقنيات التخليق على صناعته خلال أجيال ومراحل متعددة، شأنه شأن الحشرات المتحولة» (مصطفى كيحل، 2019، الصفحات 119-120)

وهذا عالم ما بعد الإنسان الذي يغدو الإنسان فيه كائنا فاقدا لأي سمة من سمات إنسانيته في صناعة جديدة لأنسان فائق متجاوز لأي نقص أو عيب أو مرض أو شيخوخة، فهو عهد الكمال الإنساني الذي يصنع فيها الإنسان مصيره بنفسه، وهذه الثورة التقنية بكل ميزاتها وجاذبيتها قد أبعدت الإنسان عن جوهره وقتلت فيه سماته الإنسانية بعد أن قتلت سماته الروحية، «لقد فقد إنسان القرن العشرين عالما ذا معنى وذاتا تعيش في المعاني انطلاقا من محور روحي، وجذب عالم الأشياء الذي أبدعه الإنسان إلى ذاته، ذلك الإنسان الذي أبدع هذا العالم والذي فقد الآن ذاتيته فيه، لقد ضحى الإنسان بذاته على مذهب منتوجاته» (حسن الكحلاني، 2004، صفحة 9)

وهذا الإلحاد الجديد لا يقتصر عن التمرد عن فكرة الألوهية بل حتى عن فكرة الإنسانية، في سبيل فرض ذاته وفرديته وإفساح المجال لقدراته وثورته العلمية التقنية التي افتتن بها.

5. نقد خطاب الأنسنة في الفكر الإسلامي

إن السؤال الذي يطرح نفسه وبشدة هل نحن ضد النزعة الإنسانية أو ضد الإنسان في مسيرته الإصلاحية، في الحداثة الغربية وكل الإنجازات التي اكتسبها في المسار الطويل من التقدم العلمي والتكنولوجي؟

لقد انتقلت النزعة الإنسانية كغيرها من الفلسفات الغربية إلى العالم الإسلامي والعربي واحتضنها جمع كبير من المفكرين وسعوا إلى بلورتها و تعميقها داخل المجتمعات العربية بغض النظر عن الظروف التي نشأت فيها والمنطلقات التي تنطلق منها، مما فتحت بابا من الصراع بين فكرة الإنسية الغربية والإنسية الإسلامية إذ رغم أن أركون كان يحاول أن يؤكد أصالة فكرة الأنسنة في التراث الإسلامي إلا أنه يعاب عليه أنه: «نظر إليها بوصفها الخلاص من كل الأزمات التي تعيشها الإنسانية، في حين أن التعامل مع الإنسان بوصفه كائنا مقدسا والإعلاء من شأنه يضر بالإنسانية، وكان الأجدر به أن يتوجه إلى نقد المركزية البشرية وتفكيكها، لأنها تعبر عن نرجسية الإنسان عامة، والإنسان الغربي بوجه خاص، التي تضر بالإنسان والطبيعة» (مصطفى كيحل، 2019، صفحة 115)

إن الإسلام لم يعادي الأنسنة لذاتها، بل لما تحملها من أفكار تعادي التصورات الدينية، لذا فإن كل فكر أو أيديولوجيا تخالف تصوّرات الوحي يخطئها الإسلام، فهو ينظر إلى الأنسنة بنظرة دينية ويرسم الإطار الذي يمكن أن تتحرك فيه حتى تحافظ على رسالتها وعلى مكانة الإنسان في الكون، «إنها لا تضع الإنسان في مركز المشروع الإنساني المقطوع عن التعالي الروحاني والذي ينظر إلى نفسه بكل غرور وتبجح وكأنه مكتف بذاته ثم يصل في نهاية المطاف إلى العدمية المادية وتدمير الطبيعة» (جوافرو أريك يونس، 2016، صفحة 64)

فالإنسية الإسلامية تفتح «آفاقا جديدة للتفكير في الإنسان، فهي "لم تقم على التضاد مع الدين ومع الوحي، بل من باب أولى مع التعالي الإلهي، بل العكس من ذلك اعتمدته كنقطة انطلاق، وأفق سام

لبلوغ ما بعد المفهوم المحدود للظواهر الملاحظة. إن الإنسان ونموذجه الأصلي آدم يحتل مكانة مركزية في النظرية الإسلامية لنشأة الكون». (مصطفى كيجل، 2019، صفحة 107)

وكل هذا لا ينقص من مكانة الإنسان ولا من حريته شيئاً، فهو يتحرك في الإطار الذي يمكنه التأقلم مع العالم والكون و يحميه من أي انخراط قد يصيبه أو من سوء يشوبه، فهو ينطلق من المرجعية الإلهية ولا يتجاوزها ويتناغم معها ولا يلغيها، « وبفضل هذه الكينونة المفارقة يتموقع الإنسان في علاقة استخلاف لله تعالى، بعيداً عن كل سياق تناظر ضدي معه، أو عبودية ساذجة له، فقيم المعرفة والعلم إبداع المعنى، وقيم الحرية والاختيار، هي التي تؤسس لمركزية مشروع الاستخلاف، وتضع الإنسان أمام الله، لا في سياق تضاد وتناف معه». (مصطفى كيجل، 2019، صفحة 113)

ولقد خطت الإنسنة الإسلامية خطوات مهمة وقدمت تصورات معرفية وثقافية للإنسان بشكل عام والإنسان المسلم بشكل خاص تهدف إلى التخلص من قيود النظريات الغربية في إطار مدرسة فكرية توحيدية تكاملية تستعيد صورة الإنسان بطبيعته الاستخلافية المادية/الروحية التي توظف مناهج مركبة. وكان لهذه الجهود موقعها في مثاقفة النظريات الحديثة والعودة إلى الذات، في سبيل تأسيس متن عربي إسلامي في التعامل مع الإنسان وتفحص ماهيته ومكانته ومقصدية وجوده مع توظيف نقدي رشيد للمنتج المعرفي البشري

5. الخاتمة

- مما سبق نلاحظ أن هناك تطوراً كبيراً في مفهوم الإنسان في الفكر الغربي والذي يتبعه بطبيعة الحال الكثير من الأفكار والنظريات المتعلقة بالإنسان لأنه الفاعل المهم والإنسان

- كانت النزعة الإنسانية في المنطلق ثورة على تسلط الكنيسة ووضعية الإنسان المقهورة ولكن مع الوقت أصبحت الثورة على المعتقدات الدينية وعلى مصدرها ثم أضحت اليوم هجوم حتى على كينونة الإنسان.
- لقد حاربت النزعات الإنسانية الأخلاق واعتبرتها معيقا لتقدم الإنسان وحرية وإرادته وباعتبار مصدريتها المتجاوزة للإنسان فأكدت على بشريتها ونسبيتها مما أدى إلى انفلات أخلاقي وقيمي يدفع بالبشرية إلى
- لم يتوقف الإلحاد الفكري عند تجاوز الإله والشرعية التي أنزلها بل عمد إلى تجاوز الإنسان، فالثورة التقنية تبشرنا بما بعد الإنسان، حيث سيكون الإنسان صناعة بشرية محضة، فاقد لإنسانيته متحكم فيه شأنه شأن الآلات والمعدات المادية.
- شهدت التحولات الإنسانية ثورة على المجتمعات وفككتها وفككت العلاقات الإنسانية وأفقدت الأسرة مكانتها وحاربتها وأدت إلى اغتراب الإنسان وموته.
- لقد كان هناك وعي كبير في الفكر الإسلامي بتجاهات النزعة الإنسانية، فانتقدتها وقدمت بديلا ونقدا مهما حول الأنسنة، للاستفادة من الموروث الغربي والإنساني المهم وتجنب الأفكار الإلحادية التي تتعارض مع المكسب الديني والإيماني للمجتمعات المسلمة.

7. قائمة المراجع

- 1- عكاشة، رائد ، م 2019 معالم صورة الإنسان بين المرجعيتين الإسلامية والغربية، هيئة التحرير مجلة إسلامية .
- 2- زواغي، عزيزة ، بوجلال، نادية 2022 ، واقع الإنسان في عصر الفراغ والحداثة المفرطة جيل ليوفيتسكي أنموذج، مجلة دراسات إنسانية وإجتماعية.
- 3- الندوي، ابو الحسن، 2024، ماذا خسر العالم بانحطاط المفكرين، هيئة التحرير، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر .

- 4- إبراهيم، زكرياء ، 1968 ، دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة .
- 5- إمام، عبد الفتاح، مدخل إلى الفلسفة
- 6- الجابري، محمد عابد ، 1997، قضايا في الفكر المعاصر، مركز الوحدة للدراسات العربية بيروت .
- 7- جوافروا أريك ،يونس، 2016، المستقبل الروحاني للإسلام، ، المركز الثقافي للترجمة ،القاهرة.
- 8- سمير ، خطاب الحداثة
- 9- عليوة، عبد الغاني، الإنسان الفائق من نيتشه إلى فلاسفة ما بعد الإنسانية ، سلسلة الأنوار .
- 10- غيضان السيد، علي، 2022، الآثار الفكرية للأنسنة في الفضاء الفلسفي والعربي، مجلة الدليل للدراسات والبحوث العقدية.
- 11- الكحلاني، حسن ، 2004 ، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبوليط.
- 12- كيحل، مصطفى ، 2019، تحولات مفهوم الإنسان في فلسفة الحداثة وفلسفة ما بعد الحداثة، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر.
- 13- كيحل، مصطفى، تحولات مفهوم الإنسان في فلسفة الحداثة وفلسفة ما بعد الحداثة، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر.
- 14- المسيري، عبد الوهاب، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة.
- 15- المسيري، عبد الوهاب، دراسات معرفية.
- 16- النجار ،عبد المجيد خلافة الإنسان بين الوحي والعقل